

دروس من الهجرة النبوية

الأستاذ محمد بن زعمية

جامعة البليدة

تمهيد:

و التمكين في الأرض، وهما مرحلتان بارزتان قسم على أساسهما القرآن إلى مكّي ومدني .

الهجرة تمحيص للإيمان

ولست الهجرة أمرا هينا، إنها تمحيص للإيمان، وتميز للخبيث من الطيب، ذلك أن مفارقة الأوطان، من أصعب الأشياء على النفس، وقد سوى الله تعالى بينها وبين القتل، ذلك أن في الهجرة خروجا من الأوطان، وفي القتل خروج الأرواح من الأبدان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ (2) .

ولقد أحس النبي ﷺ بألم الخروج من مكة فكان يودعها بتلك الكلمات الحارة المحفوظة على اللسان: (والله إنك لأحب

من أعظم الأحداث في تاريخ هذه الأمة حدث الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم فلا غرو أن يلهم الفاروق ﷺ ويوافقه الصحابة رضي الله عنهم على التاريخ لهذه الأمة من هجرة نبيها لا من مولده ﷺ، لأن الهجرة ميلاده و ميلاد لأمة معه ، خير أمة أخرجت للناس ، ولعل الصحابة الكرام فهموا ذلك من قوله تعالى ، في مسجد قباء: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ (1) فسمي اليوم الذي أسس فيه ذلك المسجد أول يوم وقد كان ذلك بعد الهجرة مباشرة ، فهو بحق أول يوم نشأت فيه أمة سبىغ نورها على العالمين ، وهو أول يوم تودع فيه مرحلة الاستضعاف لتدخل مرحلة القوة

أرض الله إلى الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت) (3).

الهجرة سنة المرسلين

فلقد كان خروج النبي ﷺ إخراجاً من الديار بغير حق، واستفزازاً على الإخراج، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَبْسُوتُ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (4) والاستفزاز الحمل على الترحل، وهو استفعال بمعنى كادوا أن يسعوا أن تكون فازا (5) أي خارجاً من مكة، بل كانت مؤامرة على الإخراج، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (6) ومن إعجاز القرآن في الإخبار أنه جاء على وفق ما وقع، فملأ في دار الندوة اتفقوا على القتل، فكان ذلك هو الرأي الوسط من بين الآراء التي اجتمعت كلمتهم عليه، فذكر في الوسط، وكان الخروج هو الذي اختاره الله سبحانه لنبيه؛ وهو الموافق لذكر مكرهم أولاً، ثم ذكر مكر الله ثانياً وأن يخرج نبينا من أرضه

فقد أخرج أنبياء ورسل من قبله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (7) ذكر الله في هذه الآية قولاً بجملاً عن جميع الكفار مع جميع الرسل، وبينه في آيات أخرى مفصلاً، عن ما قيل لإبراهيم ولوط وشعيب، وإبراهيم قال له أبوه: ﴿وَاهْجُرْنِي مِلًّا﴾ (8)، ولوط قال له قومه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (9)، وشعيب قيل له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنًا﴾ (10)، وقال الله تعالى حكاية عن فرعون مع موسى عليه السلام ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (11)، فهي إذا سنة الله في المرسلين، لذلك قال ورقة بن نوفل حينما قص عليه النبي ﷺ ما رأى وسمع بغار حراء: (ياليتني فيها جدعا، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك؛ فقال رسول الله ﷺ: أوخرجني هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) (12)، وهذه شهادة من هذا الخبر على صدق نبينا ﷺ، وأنه ليس بدعا من الرسل، وقد صدق الواقع تلك الشهادة

هجرة على عين الله وفي كنفه

وإن لاقى النبي ﷺ عنتا وهو يغادر وطنه، فإن المدد الإلهي والسند الرباني ظل يرعاه، فقد ضرب الله على أبصار الفتية المتربصين الذين جاؤوا لضربه ضربة رجل واحد بالسيف فيتفرق دمه في القبائل، كما صرفت عناية الله الطالبين له بعد أن وصلت أقدامهم إلى الغار الذي يأوي أعظم مخلوق وأحبه إلى الله، حتى لقد أدركت الشفقة أبا بكر فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا فيهدئ الرسول الكريم من روعه، ويقول: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) ⁽¹³⁾ إنها كلمة تنبض بيقين لآحد له، حق لها أن تسجل في قرآن يتلى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ⁽¹⁴⁾، وهذا سراقة بن جعشم المدلجي يدرك رسول الله، ويرى الآية البينة على صدق النبوة، فيخاطب أبا جهل الذي أغراه بالمال ليأتي بمحمد حيا أو ميتا:

أبا حكم والله لو كنت شاهدا

لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمدا
رسول وبرهان فمن ذا يقاومه؟

ويشير النبي ﷺ سراقة بتقلد سواري كسرى بن هرمز، ويسلم سراقة يوم فتح مكة، وتمضي عجلة الزمان بسرعة، فتفتح بلاد فارس ويؤتى بكنوزها إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فيتعجب من الوفاء والأمانة ويقول: إن قوما أدوا هذا لقوم أمناء. فيقول له علي رضي الله عنه: إنك عففت فعفت الرعية.

ويتذكر المسلمون بشارة الرسول لسراقة فيؤتى به ليلبسوه سواري كسرى، ويقال له قل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز وألبسها سراقة بن جعشم أعرابيا من بني مدلج. ⁽¹⁵⁾

إن وعد الله حق

حين كان النبي ﷺ يودع مكة نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ ⁽¹⁶⁾، وهذه الآية من سورة القصص التي ذكرت

قصة موسى عليه السلام، ووعد الله لأمه: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (17) كما ذكرت السورة هجرة موسى عليه السلام إلى مدين فراراً من مؤامرة القتل ومكوثه ثمانى حجج أو عشرًا عند الرجل الصالح الذي نصره وآواه، وهي نفس المدة تقريباً التي يقضيها الرسول ﷺ بالمدينة ليعود إلى مكة فاتحاً منتصراً، كما نزل عليه قبل الهجرة بقليل سورة الكهف وفيها خروج الفتية المؤمنين من أجل الدين وخروج ذي القرنين وهو خروج تمكين، وخروج موسى عليه السلام في طلب الخضر وهو خروج لزيادة العلم، وهي إشارة إلى أن الله سيجمع له في خروجه من مكة الأنواع الثلاث، وقد كان.

بين قوم وقوم، وبين دار ودار

ألا ما أعظم الخسارة التي أصابت مكة وهي تزهّد في هذا النور يخرج، وتلك من أعاجيب تصاريّف المولى عز وجل، يكون الرجل أبغض الناس عند قوم، فيهيأ له قوم يكون أحب الناس عندهم، فيفقدونه

بآبائهم وأمّهاتهم ويرحبون بقدمه أيما ترحيب، وتبتهج النفوس لرؤيته أعظم ابتهاج، فما كتب الله على مؤمن أن يبقى بدار هوان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا﴾ (18).

إذ المرء لا يلقاك إلا تكلفاً

فدعه ولا تكثر عليه التأسفاً

ففي الناس أبدال وفي الترك راحة

وفي القلب صبر للحبيب ولوجفاً (19)

الاصطفاء سر رباني

شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون الموطن الجديد لنبيه أرضاً لم تخطر على بال أحد من المسلمين، بل حتى على رسول الله ﷺ، إنما كانت رؤيا رآها، فقال لأصحابه: أُرِيتُ دَارَ هَجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ (20)، فذهب ظنه إلى أنها اليمامة أو هجر، ثم استبان له أنها المدينة، فأصبحت المدينة أو طابة كما سماها رسول الله ﷺ منورة بنور الوحي الذي نزل بين جنباتها، وبحلول الجسد الشريف

فيها حيا وميتا، وغدت حرما مثل مكة، فإن إبراهيم عليه السلام حرم مكة ومحمد ﷺ حرم المدينة، وفي الحديث: (المدينة حرم من كذا إلى كذا لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث، من أحدث حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) ⁽²¹⁾، وأصبح الإيمان يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها. فما أسعد أولياءك الأنصار الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى بإيواء نبيه عليه الصلاة والسلام ونصرته وإقامته في مدينتهم فما الفخر إلا لمثل هذا. ولقد جازاهم الله بالثناء عليهم في كتابه المتلو: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ⁽²²⁾، كما كافأهم الرسول عليه الصلاة والسلام بإظهار مكائنتهم في الناس والوفاء لهم على ما قدموا فرضي أن يكون محياهم محياهم ومماتهم مماتهم، ولم ييغ عنهم حولا، بل تمنى عليه الصلاة والسلام أن يكون منهم ويعد في عدادهم: (لو أن الأنصار سلكوا واديا أو شعبا لسلك في

وادي الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار)، قال أبو هريرة ؓ: (ما ظلم -بأبي وأمي- آووه و نصروه) ⁽²³⁾ وكان السبب الذي هيا الله به الأنصار إلى هذا الشرف الذي لا ينقضي واصطفاهم به على العالمين، ما ذكره البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان يوم بعث يوما قدمه الله لرسول الله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملوئهم، وقتلت سراتهم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام) ⁽²⁴⁾.

العبرية في تهئية النفوس

لما يطرأ عليها من أوضاع عندما حل المهاجرون بأرض المدينة فوجئوا بتغير الجو، ووجدوا صعوبة في التأقلم وكان بعضهم يدعو على المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم، ويرسل كلمات الاشتياق و عبارات الحنين الى الوطن الذي غادروه، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول: كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

قلوب المؤمنين تخفق شوقاً إلى المدينة فعن أنس رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع (أسرع) راحلته وإن كان على دابة حركها من حبها) أي المدينة (26).

ولك أن تتصور عظمة هذا الحب للوطن حتى أنه ليسرع إسرعا، بل يمتد هذا الحب إلى كل جزء من أجزاء المدينة وديانها وجبالها، فعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بواد العقيق يقول: (أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل عمرة وحجة) (27) ويقول صلى الله عليه وسلم عن جبل أحد: (هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه) (28)، ولقد سرى ذلك الحب في قلوب أصحابه أيضاً، فهذا عمر رضي الله عنه يسأل الله بصدق الشهادة في سبيل الله في أرض نبي الله، فتعجب من سمعه يقول ذلك بعد أن صارت المدينة دار إسلام خالصة، حتى قتله المجوسي وهو يوم المسلمين بالمسجد النبوي عند صلاة الصبح، فمات شهيدا في بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان بلال إذا ألقعه عنه الحمى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بواد و حولي إذخر و جليل
و هل أردن يوما مياه مجنة
و هل يبدون لي شامة و طفيل

وقال: اللهم العن شيبه بن ربيعة و عتبة بن ربيعة و أمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء... (25).

وكان المفترض في بلال أن لا يأسف على مكة، لأنها تذكره بالعذاب الذي كان يلقاه ببطحائها، ولكنه الحنين إلى الأوطان، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يوجه قلوبهم إلى التعلق بالوطن الجديد، ويعددهم بالثواب الجزيل الذي سينالهم إن هم صبروا على ما يلقونه فيه من جهد و عنت، كما كان يدعو الله تعالى أن يحبب إليهم المدينة: (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا لمكة أو أشد) (البخاري كتاب فضائل المدينة رقم 1888)، وقد استجاب الله دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم فصارت

وأكثر من ذلك أن ينتقل حب المدينة النبوية إلى قلب كل مسلم إلى يوم القيامة. إنها دار الهجرة، ودار الإسلام الأولى، ودار المهاجرين والأنصار، وعاصمة الخلافة الراشدة، بل وبلد رسول الله ﷺ التي عاش فيها إلى أن التحق بالرفيق الأعلى، وفي تربتها يضم الجسد الطاهر، أفضل نسمة خلقها الله.

وحق للمسلم أن يقف هنا مع عظمة الرسول ﷺ وعبقريته في بناء النفوس وتغييرها من الجذور، فبعدما كانت تهيم بالوطن الأول وتلتاع شوقاً إليه تتحول هذه المشاعر إلى غيره، بل إنها قدرة هذا الدين العجيبة في تعليم المسلمين الرضى بالأقدار وتقبل الأوضاع إن لم يكن منها بد، بدل إرسال الزفرات والحشرات فإنها لا تغني شيئاً.

تغير البيئة وأثره في اختلاف الأحكام

لم يقف التغير الذي وجده المهاجرون بالمدينة عند تغير الجو والمناخ، بل تعداه إلى التغير في الأعراف والعادات وهذا جهد آخر يضاف إلى الجهد الذي بذل

في صرفهم إلى حب الإقامة بالمدينة، ولا تعجب من تغير العادات بين مكة والمدينة وليس بينهما بعد مسافة ولا تغير الجنس فالمسافة غير بعيدة، والسكان عرب مثل سكان مكة، لكن في الحقيقة يوجد الاختلاف لبعد المسافة بمقاييس ذلك الزمان لا هذا الزمان، ولأن عرب المدينة بحكم معيشتهم لطوائف من اليهود غير عرب قریش.

لعل من أهم الاختلافات في العادات ما يتعلق بالأسرة عموماً وبالمراة خصوصاً، وهذا ما لاحظته سيدنا عمر ؓ حين قال: (كنا معشر المهاجرين قوماً نغلب نساءنا، فلما جئنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم فأخذت نساؤنا يتعلمن من نساءهم) (29).

ولا يشك عاقل في تغير أحكام الشريعة الإسلامية التي أرادها الله أن تكون مرنة لتغير الزمان والمكان والعادات، فكبار الفقهاء المجتهدين غيروا أراءهم الفقهية لما رأوا أوضاعاً على غير ما استقر عندهم، ومن ثم ندرك خطورة الفتاوى التي تساق إلى الناس دون معرفة لعاداتهم ودون معاشة لواقع

الجامعة بمقتضى الدين والعقد الذي عقده رسول الله ﷺ.

ولعل في هذا إيناسا للمسلمين اليوم وتنبها لهم إلى أن يتعايشوا في ظلال الأخوة الدينية، وإن تعددت مشاربهم في الفهم وفي الروم إلى الإصلاح وابتغاء نشر الخير، فلا يصح شرعا أن يلغي كيان منهم كيانا آخر فضلا عن أن ينصبه العداء، ولأن صبغ الناس كلهم بلون واحد في الأشياء التي يصح الاختلاف فيها أمر يناقض فطرة الله التي فطر الناس عليها.

أول دستور ومفهوم الدولة في الإسلام

يعرف الدستور على أنه النص القانوني المكتوب الذي يتعلق بشأن الدولة فيعرف الدولة وسلطاتها، وحقوق وواجبات كل من الراعي والرعية، وقد عرف المسلمون بعد الهجرة النبوية مباشرة تنظيمًا بهذا المعنى الذي عرفه القانون الحديث، وذلك ما يشير بوضوح ويدل من غير غموض على طبيعة الدين الخاتم الذي رضى الله لنا وأن أحكامه تهيمن على شؤون الحياة

حالهم، كما يجب على المسلم أن لا يضيق ذرعا باختلاف العادات والذي له أثر في اختلاف الحكم، لأنه من آيات الله ومن التنوع الذي أراده سبحانه وتعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ اللَّسَنَاتِ وَالْوَنُكُورُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (30).

الأخوة الإسلامية وتعدد اللافئات بالمجتمع

لقد كان التباين واضحا إذا بين المهاجرين الذين تربوا بمكة المكرمة وأخذوا من أعراف أهلها ما أخذوا وبين الأنصار الذين سكنوا المدينة من قبل وتخلقوا بأخلاقها، فلا مانع أن يكون للأنصار كيانهم وشخصيتهم المعنوية ويكون مثل ذلك للمهاجرين، وقد أقر النبي ﷺ هذا الوضع لمسائرته طبيعة الأشياء، وليكون بذلك جو من المنافسة المحمودة في الخير، وكثيرا ما عرضت للأنصار والمهاجرين مواقف تدل على اعتزاز كل منهما بوضعه الطبيعي الذي جعله الله فيه.

لكن كان ذلك يحدث تحت مظلة الأخوة الإسلامية والرابطة الإيمانية

الخلفاء، وقد استنبط العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله عشرين أصلاً من أصول الولاية في الإسلام من خطبة أبي بكر رضي الله عنه بعد توليه الخلافة.

فالدولة في الإسلام - من حيث سلطة الحكام - دولة مدنية بالمفهوم المعاصر وإن كانت دينية من حيث المرجعية القانونية، فالقانون السائد فيها الذي يرجع إليه الحاكم والمحكوم مصدره الشريعة نصوصاً ومقاصد.

بناء المسجد منطلق الإشعاع ومركز التوجيه في الأمة

وإن كان الإسلام قد جاء ليحكم شؤون الحياة كلها، ويعنى بتنظيم الدولة والمجتمع فإن عنايته أكثر ما تكون بالفرد وإصلاحه، وتغيير ما بنفسه، فذلك هو التغيير الحقيقي المنشود ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (33).

فلا غرو أن يكون من أولى أولويات هذا الدين العناية بالناحية التعبدية عند الفرد عبر الشعائر، بعضها يومي، بل خمس مرات في اليوم وهي الصلاة،

كلها، وليس كهنوتاً أو طقوساً أو شعائر فقط، فالقرآن الكريم حين يذكر فريضة الصيام ويخبر أنها أمر مكتوب أي مفروض ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (31) وهذه شعيرة وعبادة تختص بالأفراد، نقرأ كذلك قوله تعالى في نفس السورة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ (32) والقتال من وظائف الدولة التي تنظم الدفاع عن التراث والتراب، وليس معنى ذلك أن الدولة في الإسلام دولة دينية خالصة كما كان عند الكنيسة يستمد رجالها سلطاتهم من الله، فلا يعارضون ولا ينكر عليهم في شيء وإنما الدولة في الإسلام - من حيث رجالها - دولة مدنية يستمد رجالها سلطاتهم والتفويض بالحكم بين الشعب عن طريق الانتخاب الحر، وقد جسد ذلك أول خليفة للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، فبعد أن بايعه المسلمون خطب خطبة ذكر فيها بأنه منتخب وأنه بإمكان أي فرد من المسلمين أن يقومه إذا رأى فيه اعوجاجاً، وقد قال ذلك كل من جاء من بعده من

ذلك لأنها طبيعة هذا الدين وخاصة من خصائصه، يعطي البعد الاقتصادي مكانته، فهو يبيح التجارة، بل يعدها من القرب التي تعدل الجهاد ﴿وَأَخْرُونَ يَصْرِيُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ﴾ (35) وهي من الحكم والمنافع التي شرع لها الحج إلى بيت الله الحرام، فيتبادل المسلمون سلعهم، وقد كانوا يتخرجون في بداية الأمر من التجارة خلال موسم الحج حتى نزل قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (36)، بل جاءت عبادة الزكاة قبل ذلك وليس لها من هدف إلا تنظيم الثروة وإدارة المال والقضاء على كل مظاهر الضعف الاقتصادي من تضخم وفقر.

هجرة المسلمين اليوم

بعد أن استقر الإسلام في المدينة المنورة وقامت دولته هناك، لم تعد حاجة إلى أن يهاجر المسلمون إلى المدينة، وإنما على كل

ومن ثم كان للمسجد في الإسلام تلك المكانة لأنه المكان الذي تؤدي فيه تلك العبادة، فهو مشتق من أعظم أركانها وهو السجود، وبناء المسجد وإن كان هدفه الأول إقامة الصلاة وذكر الله كما في الحديث: (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن) (34) فإنه مع ذلك يهدف إلى ربط الناس وتأليف قلوبهم من خلال التأكيد على صلاة الجماعة، بالإضافة إلى الاجتماع الأسبوعي يوم الجمعة الذي يتميز بخطبته المنبرية، وأهميتها في التوجيه غير خافية. كما يعد المسجد جامعة للعلوم مفتوحة أمام جميع الناس وفي جميع الأوقات، ولجميع العلوم والفنون التي يحتاجها المسلمون في دينهم ودنياهم.

تأسيس السوق وبيان البعد الاقتصادي

للإسلام

من المنجزات الكبرى التي قام بها الرسول ﷺ عند مقدمه للمدينة تأسيس سوق تقوم فيها التجارة، ولا غرابة في

بعد أن أصدر النبي ﷺ ذلك الحكم، وقد يكون للهاجر سلطة تأديبية على المهجور كهجر الزوج لزوجته عند النشوز ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾⁽³⁹⁾، أو هجر الوالد لولده كهجر عمر ﷺ لأحد أولاده عندما أتى خطأ، وقد يمارس حق إصدار عقوبة الهجر جماعة المسلمين أو خاصتهم من العلماء إذا لم يقيم ولي الأمر بذلك الواجب بشروطه.

2- أن العقوبة بالهجر يراعى فيها مصلحة المهجور، فبعضهم ينفع معه الهجر ويرتدع ويقطع عن غيه حين يهجر وبعضهم لا يزيده الهجر إلا عنادا ونفورا، وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أكثر من موضع من كتبه يقول في مجموع الفتاوى (بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف، ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قوما ويهجر آخرين).⁽⁴⁰⁾

3- أن نتحقق من كون المعصية تستحق هذه العقوبة، لأنها قد تكون عملا بقول مرجوح مختلف فيه، وفي

أهل مصر من الأمصار أن يمكننا للإسلام في بلادهم والواقع أن الهجرة بمفهومها الواسع اليوم منها ما هو مذموم ومنها ما هو محمود. فمن الهجرة المذمومة هجرة القرآن الكريم كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾⁽³⁷⁾ ومنها هجرة المسلم أخاه المسلم فقد قال ﷺ (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث)⁽³⁸⁾، ولكن بعض المسلمين توسعوا في هذا فرما أعطوا ذلك صبغة الدين بدعوى أن تلك هجرة محمودة لأنها هجرة لعصاة مبتدعين.

والحق أن هذه الهجرة مضبوطة بضوابط وليست متروكة للأفراد يمارسونها كيف ماشاءوا حتى لا يؤدي ذلك إلى الفساد، ولعل من أهم ضوابطها.

1- إن هجرة المسلمين عقوبة يصدرها ولي الأمر، بأن تقدر حسب مصلحة المهجور وإصلاحه، وولي الأمر هو الذي يقدر ذلك، كما فعل الرسول ﷺ مع كعب بن مالك ﷺ حين تخلف عن غزوة تبوك، فلم يقاطعه الصحابة إلا

متينة بين المسلمين، وتطهير مجتمعهم من كل مظاهر التصدع والفرقة التي تخلق الدين كما قال الرسول ﷺ: (فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تخلق الشعر ولكن تخلق الدين). (43).

ولأنه لو أبيض الهجر من غير ضوابط لأدى ذلك إلى أن يتصرف كل مسلم حسب هواه ومزاجه، ولأمعن كثير منهم في نصب العداء لإخوانه المسلمين انتصاراً للنفس الأمارة بالسوء، وربما صبغ ذلك بصبغة الدين، وما هي بدين وإنما هي نار الغضب أو الحسد التي تتأجج في صدره والتي قلما يسلم منها الإنسان، وبعد مجاهدة جهيدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. (44).

والدروس المستخلصة من هجرة الرسول ﷺ لا يمكن أن تحصى أو تستقصى في مثل هذا البحث الصغير، وإنما هذا غيض من فيض وصلى الله على سيدنا محمد في الأولين والآخرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العلمين.

هذا يقول ابن تيمية: (لو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا، لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة) (41).

4- أن تناسب العقوبة تلك المعصية فلا يتجاوز في حدها، كالدواء إذا تجاوز مقداره قد ينقلب إلى داء، يقول ابن القيم رحمه الله: (ويكون هجرانهم له دواء بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء ولا يزيد في الكمية عليه فيهلكه إذ المراد تأديبه لا إتلافه) (42).

5- أن لا يؤدي الهجر إلى مفسدة عامة تضر جماعة المسلمين، كأن يكون المهجور قريباً من العدو ويخشى أن تأخذه الحمية فينتقل إلى صفوفهم، وقد أبيض ترك إقامة الحدود في حالة الحرب من أجل ذلك كما هو معروف.

هذا حسب ما تبين لي من تتبع موارد التشريع الإسلامي ومصادره ومقاصده في الترويج بين المصالح والمفاسد، ومن اجتهادات الفقهاء، ولعلي أوفق إلى أن أشبع الموضوع بحثاً فيما يستقبل إن شاء الله لأهميته الكبرى في بناء علاقة

الهوامش

- (1) التوبة 108
- (2) النساء، 66
- (3) رواه أحمد، والترمذي، وصحيحه، وانظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبي شهية دار القلم، ط 6، 477/1.
- (4) الإسراء، 76
- (5) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1984، 178/15.
- (6) الأنفال، 30
- (7) إبراهيم، 13
- (8) مريم، 46
- (9) الشعراء، 167
- (10) الأعراف، 88
- (11) الاسراء، 103
- (12) البخاري/كتاب بدء الوحي/الحديث رقم 03
- (13) البخاري/كتاب التفسير/الحديث رقم 4663
- (14) التوبة، 40
- (15) أبو شهية، المرجع السابق 495/1
- (16) القصص 85
- (17) القصص، 7
- (18) النساء، 97
- (19) ديوان الشافعي، جمع يحيى سعيدي، دار البلاغ، الجزائر، ص 96
- (20) أبو شهية، المرجع السابق، 4/1
- (21) البخاري/كتاب فضائل المدينة/الحديث رقم 1867
- (22) الحشر 9
- (23) البخاري/كتاب فضائل الأنصار/الحديث رقم 3779

- (24) المصدر السابق، الحديث رقم 3777
 (25) المصدر السابق، الحديث رقم 1888
 (26) البخاري/كتاب فضائل المدينة/الحديث رقم 1888
 (27) البخاري/كتاب الحج/الحديث رقم 1534
 (28) مسلم/كتاب الحج/الحديث رقم 1392
 (29) البخاري/كتاب النكاح/الحديث رقم 5191
 (30) الروم، 22
 (31) البقرة، 183
 (32) البقرة، 216
 (33) الرعد، 11
 (34) مسلم/كتاب الطهارة/الحديث رقم 285
 (35) المزمل، 20
 (36) البقرة، 198
 (37) الفرقان، 30
 (38) انظر السيرة النبوية لأبي شهبة
 (39) النساء، 34
 (40) فتاوى ابن تيمية، 206/28
 (41) المصدر السابق، 173/24
 (42) زاد المعاد لأبن القيم 20/3
 (43) رواه مسلم
 (44) العنكبوت، 69